الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

فمن أبصر فلنفسه

البصيرة القرآنيّة بين التّكريم الإلهيّ والمسؤوليّة الفرديّة

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في وقفات تأمليّة يسرقها الفرد لينظر بعمق في تجليّات الذّات والمجتمع والآخر والكون بأكمله، تتراءى لنا إدراكات واعية بأنّنا جزء أساسيّ من منظومة أكبر من ذواتنا، ووجودنا مكمّل لتمام هذه المنظومة، فلسنا بذوي وجود هامشيّ أو بسيط، وإنّما وجود مترابط متشابك العلاقات، يحمل في جوهره حقيقة جوهريّة أقرّها القرآن الكريم بحكمة بالغة وبكلمات موجزة تلخّص حقيقة تواجد الإنسان وعلاقاته مع ذاته وغيره، بإعلان صريح بأنّ الإنسان مسؤول عن أفعاله وخياراته، وأنّ نتائج هذه الأفعال تعود عليه أولاً، ومقتضاه: ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ (الأنعام: 104)

وتجيء بعد ذلك آيات القرآن الكريم زاخرة بهذا المفهوم العميق، وفي أكثر من صيغة لتؤكّد مجتمعة على مبدأ المسؤوليّة الفرديّة:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (فصّلت:46) ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ (لقمان: 12)،﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ (فاطر:18)، ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ (العنكبوت:6) ،﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ (الإسراء: 15)، فهذه الآيات ترسم دستور حياة للفرد، وخارطة طريق واضحة في علاقته مع نفسه ومجتمعه.

فالنّهضة المجتمعيّة تبدأ من داخل الفرد نفسه، ومن إدراكه لمسؤوليّته تجاه ذاته أولاً، إذ إنّ الإنسان المسؤول عن نفسه هو القادر على تحمّل مسؤوليّة مجتمعه، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11)، فهنا كان واضحاً أنّ أساس التّغيير المجتمعيّ يكمن في البدء بالتّغيير الفرديّ، وفي السّعي لإصلاح الذّات قبل إصلاح الآخرين.

ومن منظور تربويّ قيميّ، تعدّ المسؤوليّة الفرديّة الرّكيزة الأساسيّة لبناء شخصيّة متوازنة تساهم في بناء المجتمع، فالتربّية الصّحيحة تزرع في النّفس الإنسانيّة القدرة على محاسبة الذّات قبل محاسبة الآخرين، وتعزّز مفهوم "فمن أبصر فلنفسه" كأساس لتكوين الشّخصيّة المتكاملة من كافّة جوانبها على اختلافها.

كما أنّ في مبدأ "فمن أبصر فلنفسه" دعوة عميقة للمسؤوليّة الفرديّة وتحمّل الفرد عواقب خياراته وأفعاله، ففي سياق التحدّيات التّعليميّة كغياب الطّلبة والاعتماد المتزايد على الدّروس الخصوصيّة والتّحرّش وغيرها، تكمن الحكمة في إدراك أنّ أصل الحلول يبدأ من داخل الفرد نفسه، فعندما يستشعر الطالب أنّ تعليمه مسؤوليّته الشخصيّة أولاً وليس مسؤوليّة المعلّم أو النظام التعليميّ فحسب، فإنّه يتحوّل من متلقٍ سلبيّ إلى مشارك فاعل في العمليّة التّعليميّة، وهذه الفرديّة في التّعامل مع التّعليم تعزّز روح المبادرة لدى الطّالب، وتدفعه للحضور بانتظام وللبحث عن المعرفة من مصادرها المتنوعة، بدلاً من الاعتماد بشكل كليّ على الدّروس الخصوصية كمكان بديل عن التعلّم الذاتيّ والمشاركة الفعّالة في الفصل.

أمّا على المستوى المجتمعيّ، فإنّ إعلاء مبدأ الفرديّة يمثّل تحولاً جوهرياً في النسيج التعليميّ بأكمله، فحينما يدرك كلّ طرف في منظومة التعليم -من طلبة ومعلّمين وإداريّين وأولياء أمور ومن بعده المجتمع بأكمله- مسؤوليّاتهم الفردية تجاه إصلاح الخلل، يتشكّل وعي جمعيّ يتجاوز إلقاء اللوم على الآخرين إلى العمل على تحسين الذات أولاً، وهذا الالتزام الطبيعيّ نحو المسؤوليّة الفرديّة يؤسس لثقافة تعليميّة جديدة تقوم على التّوجّه الداخليّ والرغبة الصّادقة في التعلّم، وهكذا، يمكن للمجتمع أنْ يواجه تحدّيات غياب الطلبة وانتشار الدّروس الخصوصية والتحرّش من خلال تنمية الضمير الفردي والوعي الجمعي بأنّ "من أبصر" حقيقة التعلّيم وقيمته الفرديّة سيجد في نفسه الدافع الحقيقي للمشاركة والإبداع، وليس في الإكراه الخارجي أو الحلول المؤقتة.

فإنّ مجرّد إدراك الفرد منّا لعمق معنى ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِۚ﴾(النساء:111)، وأنّ ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۚ﴾(محمد:38)، فإنّه ذلك سيقوده لتحمّل مسؤوليّة قراراته وأفعاله، وسيسعى جاهداً لتزكية نفسه وتهذيبها، فإنّ هذا الوعي الذاتيّ بالمسؤوليّة هو ما سيشكّل لديه نقطة الانطلاق نحو مجتمع مسؤول يدرك فيه أفراده أنّ نجاحهم ونجاح مجتمعهم وجهان لعملة واحدة، وتوأمان لا انفصال بينهما.

ومن خلال إدراك وفهم مضمون " فمن أبصر فلنفسه"، تتجلّى بشكل طبيعيّ حقيقة كون الامتداد من المسؤوليّة الفرديّة إلى المسؤوليّة المجتمعيّة استجابة طبيعيّة للإنسان الذي يدرك مسؤوليّته تجاه نفسه أولّاً، وبالتّالي سيدرك بالضّرورة مسؤوليّته تجاه مجتمعه.

فالمسؤوليّة المجتمعيّة في المنظور التّربويّ تقتضي كون الفرد فاعلاً بإيجابيّة في محيطه، مدركاً بوعي أنّ سلوكه وقراراته لا تؤثّر فيه بمفرده، وإنّما تمتدّ آثارها لتشمل المجتمع بأكمله، لذلك، فإنّ تربية الأجيال على تحمّل المسؤوليّة المجتمعيّة تبدأ من غرس مفهوم المسؤوليّة الفرديّة في نفوسهم، وتعزيز الوعي بأنّ "فمن أبصر فلنفسه" ليست دعوة للأنانيّة، بل هي دعوة لإدراك الذّات كنقطة انطلاق نحو الآخر والمجتمع لا محالة عنها ولا تجاوز عن البدء بها، وهي بيان توضيحيّ أنّ كلّ إنسان مسؤول عن أفعاله وخياراته، فهذه المسؤوليّة الفرديّة تشكّل الأساس الذي ينطلق منه دور الفرد في نهضة مجتمعه، إذ إنّ الفرد من منظور تربويّ يقع عليه تقديم العديد من الأدوار لمجتمعه وتحقيق نهوضه، من مثل:

- المبادرة الفرديّة والإيجابية، فالفرد المسؤول لا ينتظر من يدفعه للعمل، بل يكون سبّاقاً إلى الخير، مبادراً إلى الإصلاح، تنبع مبادرته من إدراكه لمسؤوليته الفردية: ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت:6).

- تنمية الذات والتطوير المستمر، فالفرد يبدأ بتحمّل مسؤولية تنمية ذاته وتطويرها باستمرار ، وتنمية قدراته ومهاراته، وتوسيع مداركه ومعارفه، وتهذيب سلوكه وأخلاقه من منطلق التزكية لنفسه: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾(فاطر:18).
- العطاءوالبذل والإسهام المجتمعي، فالفرد المسؤول هو الذي يدرك أنّ ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ (الجاثية:15)، وأنّ العمل الصالح يعود نفعه على الفرد أولاً ثمّ على مجتمعه، وإنْ بخل بالجهد والوقت والمال والفكر فقد حرم ذاته قبل أنْ يكون قد حرم مجتمعه﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾(محمد:38).
- الالتزام بالقيم والمبادئ الأخلاقية، فالفرد يلتزم بالقيم والمبادئ الأخلاقية في سلوكه وتعاملاته، لكون التزامه نابعاً من إدراكه أنّ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾(النساء:111)، ويدرك أيضاً أنّ النكوث عن العهود والمواثيق والقيم إنّما هو خسارة للذّات قبل أنْ يكون خسارة للمجتمع: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾(الفتح: 10).

وحتّى يتسنّى لنا تحويل مفهوم "فمن أبصر فلنفسه" من مجرد شعار لفظيّ ننادي به إلى ممارسة عمليّة نحتاج تلمّسها، لابدّ من وضع آليّات تربويّة تسهم في ترسيخ هذا المفهوم في نفوس الطلبة، ومن هذه الآليّات:

تعزيز مفهوم المحاسبة الفردية ووقوف الإنسان مع نفسه وقفة صادقة، لمراجعة أفعاله وأقواله وسلوكياته، وتقييمها بموضوعية وتجرّد، وترسيخ مفهوم هذه القيمة لدى الطلبة منذ الصغر، وتعويدهم على مراجعة أنفسهم باستمرار، وربط العمل بنتائجه والسلوك بعواقبه من خلال تعزيز مفهوم السببية في الحياة فكلّ سبب له نتيجة، وكل فعل له ردّ فعل، والعمل على تنمية الضمير الأخلاقيّ والوازع الدّينيّ لكونهما الرقيب الداخلي الذي يوجّه سلوك الفرد ويضبطه، لذا وجب الاهتمام بالتربية الدينية والأخلاقية، وغرس القيم والمبادئ في نفوس الأفراد منذ الصغر ، وتعزيز

مفهوم القدوة والنموذج لكون الفرد يتأثّر بمن حوله، ويقتدي بهم في سلوكه وتصرّفاته، فقد وجب الحرص على تقديم النماذج والقدوات الإيجابية للأفراد، سواء من التاريخ أو من الواقع المعاصر.

وبعد،

فإنّ هناك فلسفة حياة كاملة تكمن في "فمن أبصر فلنفسه" تؤطّر للمسؤوليّة الفرديّة والمجتمعيّة، وهذه الفلسفة تؤكّد أنّ :

- الإنسان مسؤول عن أفعاله وخياراته، وأنّ نتائج هذه الأفعال تعود عليه أولاً.
- الأسرة حجر الأساس في بناء المجتمعات السليمة لكونها الحاضنة الأولى التي يتشكلّ فيها الإنسان قيمياًّ وأخلاقياًّ، ومع تزايد التحديات المجتمعيّة التي تواجه شبابنا في الوطن العربي من ظواهر مؤلمة كالانتحار، وتعاطي المخدرات، والانحرافات السّلوكية المختلفة، تبرز أهمية ممارسة المسؤوليّة الفرديّة للأسرة بشكل أكبر من أيّ وقت مضى، إذ إنّ الرجوع إلى المبادئ والقيم الأصيلة يمثل طوق النجاة لمجتمعاتنا، وهذا لا يتأتى إلا من خلال وعي الأسر بدورها المحوري، فالأسرة الواعية هي التي تستطيع غرس القيم السليمة وبناء شخصية متزنة قادرة على مواجهة التحدّيات والصّعاب، وهي القادرة على التصدّي لظواهر سلبيّة متعددّة مثل التحرش، والدروس الخصوصية التي أثقلت كاهل الأسر، والغياب المدرسي المتكرر، إذ إنّ توعية الأسر وتثقيفها بأهمية دورها التربوي والأخلاقي يمثلّ خطوة أساسية في طريق الإصلاح المجتمعي، فعندما تدرك الأسرة مسؤوليتها وتمارسها بوعي وحكمة، فإنها تشكلّ خطّ الدفاع الأول ضد الانحرافات والمشكلات المجتمعية التي تهدد شبابنا وتقوّض الأمن الوطنيّ لمجتمعاتنا.
- المسؤوليّة الفردية هي نقطة الانطلاق نحو المسؤوليّة المجتمعية، وأنّ دور الفرد في نهضة مجتمعه يبدأ من تحمله مسؤولية نفسه.

ختاماً،

تعتبر المسؤوليّة الفرديّة خطّ الدّفاع الأوّل أمام الانحرافات والمشكلات الأخلاقيّة والمجتمعيّة، لذا فإنّنا نحتاج لأنْ نضع النقاط على الحروف، وأنْ نؤكّد على أنّ تلك الظواهر المصدّرة إلينا من مثل الشّذوذ والتحوّل الجنسيّ والتّحرّش وغيرها الكثير، ما هي إلاّ آفات تفتك بعمق مجتمعنا، ويقع على عاتقنا كمجتمع ومؤسّسات تنشئة وأولياء أمور أنْ نتصدّى لها ونحاربها، فكلّنا راعٍ وكلّنا مسؤول عن رعيتّه، فقد وجب علينا الاقتراب من أبنائنا من خلال التربية والقيم، إذ إنّ القيم وغرسها يبدأ من المنزل، لذا فقد وجب الانتباه ومن ثمّ الانتباه لدورنا الحيويّ أمام تسلّل هذه الفئات لمجتمعنا، وأنْ ندّق ناقوس الخطر لما نعانيه منها.

وآخر دعوانا أنْ يحفظ اللّٰه أبناء الأمّة العربيّة والإسلاميّة، ويهديهم سبل الرّشاد، وأنْ يصلح أحوالهم ليصلحوا مجتمعاتهم، اللهم آمين.